

الانتحار : بحث علمي احصائي

الحياة في كل شعوب الارض ائمن قنية يقتنيها الانسان . ولا بدءاً من ان تبقى في حرز حرز لا تباح للمعتدي اذا شئنا لعمراتنا البقاء . فرغماً عن المصاعب التي تصادفها وضروب الهوان والحياة التي تصيبنا يظل الالم عاجزاً في الغالب عن الفوز على الرغبة في الحياة . ومع ذلك تحيى على كثير من الناس احياناً يتمنون فيها راحة الموت وسلام القبر . فالوجود كثير التعقيد لا يخلو من بواعث اليأس والقنوط وكثيراً ما يجد الانسان نفسه في مأزق تصغر فيه قيمة الحياة امام راحة القبر . تملك هذه الخواطر عنان النفس لحظة طارة فاذا استطاع الانسان ان يحتفظ في تلك اللحظة بعقله وائزانه ادرك ان مصاعبه تنقضي وان سعيه مقروناً بالحكمة يخرج به من الممعة ظافراً . ولا ريب في ان غريزة البقاء تضع امام العزم على الانتحار سداً منيعاً ولكن هذا السد يتهدم في بعض ساعات القنوط الشديد فتزهق الروح وتخذ شعلة الحياة . وهما يكن السبب فعدد الذين يختارون هذه الطريقة للفرار من تبعات الحياة كل سنة كئثر يعدون بالالوف ولكنهم في الغالب هم المغلوبون في ميدان الحياة وانتحارهم اقرار منهم بعجزهم وهزيمتهم

﴿ زيادة الانتحار ونقصه ﴾ عدد الذين ينتحرون في الولايات المتحدة الاميركية كل سنة وثبتت حوادث انتحارهم يبلغ نحو ١٦٠٠٠ نسمة . ولا ريب في ان عدداً كبيراً ينتحرون فلا يثبت انتحاره لان اقاربهم يخفون السبب فيدون في سجل الوفيات على ان الوفاة طبيعية او غير ذلك . ومن المتعذر علينا الآن ان نثبت هل الانتحار آخذ في الزيادة في بلادنا او هو ثابت على متوسط واحد . فالاحصاءات المدونة لم تبدأ الا في مطلع القرن العشرين لما كان متوسط المنتحرين ١١٥ في الالف وظل يرتفع حتى بلغ ١٧٨ في الالف سنة ١٩٠٨ وظل نحو ١٦ في الالف الى مطلع الحرب الكبرى . فلما دخلت الولايات المتحدة غمار الحرب هبط متوسط المنتحرين تدريجاً الى ان بلغ ١٠٢ في سنة ١٩٢٠ وهذا يطابق زيادة الانتحار ونقصانه في البلدان الاوربية مما يدل على ان خيبة الآمال التي اسفرت عنها الحرب لم تدفع بالنفوس الى الانتحار قنوطاً من صلاح الحال . ثم اخذ هذا المتوسط يرتفع في الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٢١ حتى بلغ ١٣٦ سنة ١٩٢٨ فالألتجاه العام غير معين ولكن الامر الذي لا ريب فيه ان المتوسط هبط عما كان عليه سنة ١٩١١ وما يؤثر في هذا الصدد ان

متوسط الاتحار بين المال في الريف نقص اكثر من نقصه في مجموع الامة ﴿ اختلافه باختلاف البلدان ﴾ ومتوسط الاتحار يختلف باختلاف البلدان فيبين عن العادات المختلفة التي يجري عليها السكان وعقائدهم الدينية وأحوالهم الاقليمية والاجتماعية وغير ذلك من العوامل التي تزجر النفس وتقيها من الاستسلام لعوامل الهلاك. في الصف المتوسط نجد الولايات المتحدة وانكلترا واسوج وويلز واسكتلندا واستراليا وزيلندا الجديدة وفنلندا . ويفوقها قليلاً في علو متوسط الاتحار بلدان البلجيك والدنمارك وفرنسا ويقل عنها قليلاً بلدان ايطاليا وهولانده ونروج وكندا. واعلى متوسط للاتحار في اليابان والبلدان الجرمانية كالمانيا والنمسا وسويسرا والمجر وبولونيا وتشكوسلوفاكيا. والمتوسط فيها يتراوح بين ٢٥ في الالف و٣٠ في الالف وهو ضعف المتوسط في اميركا وانكلترا وغيرها وستة اضعاف الى عشرة اضعاف المتوسط في البلدان الكاثوليكية مثل اسبانيا وايرلندا وشيلي وكوبا . ومما هو جدير بالذكر ان متوسط الاتحار في القسم الكاثوليكي من ايرلندا يبلغ ٣٠ في الالف وفي القسم الشمالي وهو القسم البروتستانتي يبلغ ضعف ذلك او نحو ٦ في الالف

﴿ الزوج والبيض ﴾ والاتحار في الولايات المتحدة الاميركية مقتصر تقريباً على البيض ففي احد عشر مليوناً من الزوج في تلك البلاد لم يحدث سوى ٥٠٠ حادثة اتحار في سنة. وهذه الحقيقة على جانب من الخطورة لان متوسط القتل العمد بين الزوج عال جداً. فليس تمت اساس علمي للاعتقاد القائل بأن الاتحار والقتل يسيران جنباً الى جنب. وانهما ينشآن عن احتقار الحياة الانسانية. والظاهر ان لكل من العاملين سيرة نفسياً معينة يختلف عن الآخر . فالقتل ينشأ في الغالب عن انفعال عنيف مفاجيء يتلوه الدافع للقتل . اما الاتحار فيغلب عليه ان يكون نتيجة تدبر وروية وتأمل باطني وهي نفس العوامل التي تخمد الانفعال المفضي الى القتل

﴿ السن : الكبار والصغار ﴾ والسن عامل من اهم العوامل في الاتحار وعلى الضد من الاعتقاد العام يزداد متوسط الاتحار بتقدم السن. فالاطفال والصغار يندر ان يقع بينهم حادث اتحار . نخفتهم وبراءتهم ونشاطهم تحول دون مرارة الحية وظلمة القنوط . ففي سنتي ١٩٢٣ و١٩٢٤ وقع في الولايات المتحدة التي شملتها الاحصاءات ٢٣٠٠٠ حادث اتحار لم يكن بينها سوى ٧٨ من الاطفال او اقل من ثلاثة اعشار واحد في المائة . فرغماً عن الحوادث التي تشهرها الصحف وتهول بها الميثبات ان الاتحار بين الصغار مسألة اجتماعية معقدة ولا علاقة لها بما تدعيه الصحف من تفشي الشغور بالمرارة والحية بين الاحداث. واكبر دليل

على ذلك ان نقص متوسط الاتجار كان معظمه في طبقة الاحداث المراهقين في السنين الاخيرة. واذا بدأنا التتبع من سني المراهقة الى الكهولة وجدنا انه كلما تقدم الشباب في السن زاد متوسط الاتجار بينهم . بل ان نصف حوادث الاتجار التي تقع في اميركا تقع بين الرجال الذين سنهم ٤٥ سنة او فوق ذلك مع ان الرجال الذين في هذه السن ليسوا الا عشرين في المائة من مجموع السكان والاتجار في الرجال وفي النساء يبلغ معظمه في الكهولة والشيخوخة وهو في الرجال اكثر منه في النساء

﴿ الرجال والنساء ﴾ والواقع انه يصح القول بأن الاتجار استجابة نفسية خاصة بالرجال . فعدد المنتحرين كل سنة ثلاثة اضعاف المنتحرات . ولا يفوق متوسط المنتحرات متوسط المنتحرين الا في السن ١٥ — ١٩ وهو لا شأن له لقلة المنتحرين والمنتحرات فيه كما تقدم . على اننا نستطيع ان نتبين من ذلك ان اضطراب الحالة النفسية في سن المراهقة ابعد على اتجار الفتيات منه على اتجار الفتيان . ولكن الآلية تنقلب بعد سن العشرين ويأخذ متوسط المنتحرين بطرد ازدياداً . ومنه نتبين ان المنتحرين في سن ٢٥ — ٣٤ يفوق ضعف المنتحرات في ذلك السن ثم يصير اربعة اضعاف في السن ٣٤ — ٤٥ وسبعة اضعاف فوق سن الخامسة والستين

﴿ وسائل الاتجار ﴾ اما في وسائل الاتجار فللرجل خطة معينة واضحة وللنساء مثلها . فالرجال يستعملون الوسائل العنيفة كاطلاق الرصاص والشنق وهما اكثر الوسائل شيوعاً بين الرجال . اما النساء فيؤثرن التسمم والاختناق بفتح انبوب الغاز . وفي الغالب يندر ان تختار المرأة وسيلة للاتجار تنطوي على اراقة الدم او تشويه الجسد . وقد بلغ من ندرة استعمال الرصاص للاتجار بين النساء ان اشار بهض الاطباء النفسيين (Psychiatrist) الى ان استعمال امرأة للرصاص في الاتجار دليل على مياها الحثوي ومع ان الرجال يطلقون الرصاص غالباً والنساء يؤثرن التسمم الا ان هنالك « ازياء » تفشوا حتى في الاتجار ثم تزول . ففي هذه الايام الارتقاء من نوافذ البنايات العالية . وبما لا ريب فيه ان وسائل الاتجار تختلف باختلاف البلدان . ففي سويسرا يفضل المنتحرون ان يشنقوا انفسهم على ان يطلقوا الرصاص والنساء يفضلن الغرق على التسمم . والاتجار غرقاً . وفي ايطاليا كثير الشيوع فهو بين النساء ثاني وسائل الاتجار شيوعاً وبين الرجال ثالثها . وبما لا ريب فيه ان سهولة تناول تعيين وسيلة الاتجار في كثير من الحوادث فاذا كان الانسان قانطاً وفتح درجته ورأى مسدساً محشواً اطلقه على نفسه او اذا رأى امامه حبلاً جديداً ومكاناً يعلق منه اتحر شتقاً . فالوسائل عنده سواء لا يفضل منها الا ما كان رهن

يديهِ. ولكن هنالك طائفة من المنتحرين تكابد أنواع المشاق لتنتحر بطريقة مرسومة من قبل. وقد علمنا حديثاً عن اول حادثة انتحار بالارتماء من طيارة اقدمت عليها سيّدة لتفوز في موتها بالشهرة التي تخططها في حياتها

﴿ الانتحار والحالة الاقتصادية ﴾ واذا حاولنا ان نتبين العلاقة بين الميل الى الانتحار وحالة المنتحرين المالية عرفنا ما ينطوي عليه هذا البحث من الصعوبة والتعقيد . والحقائق التي لدينا لا تسوّغ لنا الا الاستنتاج التالي : يندر ان يكون سبب الانتحار واحداً . فقد قيل ان الاثرياء الذين يملكون كل وسيلة للتمتع في الحياة اقرب الى الانتحار من المعدمين الذي لا يكادون يملكون ما يتبلغون به . ولكن الاحصاءات التي بنينا عليها هذا لا تؤيد ما يقال . فسجلات الوفيات في الولايات المتحدة الاميركية لا تفيدنا في تبين حالة المتوفي المالية والاجتماعية . على ان خير ما نستطيع الاعتماد عليه بعد السجل الرسمي ، احصاءات شركة متروبوليتان للتأمين على الحياة . فلديها طائفتان من حاملي البوالص الشركة طائفة صناعية وطائفة عادية . وتشتمل الاولى على العمال الفاطنين المدن ومتوسط الانتحار بينهم بحسب احصاءات هذه الشركة اعلى في كل سني الحياة (بعد العشرين من العمر) من حاملي البوالص المادية وجلبهم من اصحاب المهن الحرة واصحاب المرتبات

وهناك ادلة اخرى تشير الى ان متوسط الانتحار يتبع الى حدٍ ما الحالة المالية . ذلك ان متوسط الانتحار بين الرجال يختلف باختلاف الاحوال الاقتصادية العامة . ففي سنة ١٩٢٢ قام الاستاذان اوغبرن وتوماس بدرس دقيق خرجا منه بان الرواج ينقص متوسط الانتحار بين الرجال والكساد يزيده . وقد وصل باحثون آخرون الى مثل هذه النتيجة من طرق اخرى فحالة الكساد التي كانت سائدة في دوائر العالم المالية والاقتصادية بين ١٩١٣ و ١٩١٥ وافقتها زيادة تذكر في متوسط الانتحار . ثم نقص المتوسط في سنوات الرواج في اثناء الحرب (الكلام على اميركا) حتى بلغ حدّه الأدنى سنة ١٩٢٠ فلما بدأت فترة الكساد بعدها اخذ يزداد مما يدل على وجود علاقة طردية بين الرواج (او الكساد) ومتوسط الانتحار . ففي الذعر المالي الذي استولى على وول ستريت في آخر سنة ١٩٢٩ قيل ان الناس الذين فقدوا كل ما يملكونه في تلك الكارثة كانوا يرتمون من نوافذ الفنادق التي يقيمون فيها . وقد استنبطت للدلالة على ذلك قصة فقيل ان كاتب احد الفنادق كان يسأل كل من يطلب استئجار غرفة في فندقه « هل في نيتك ان تستعمل الغرفة لغرض النوم او لغرض القفز » والواقع ان حوادث الانتحار التي شهرتها الصحف ارتماها لا شأن لها في الاحصاءات الرسمية لقلتها اما في انجلترا فتقسم الامة الى خمس طبقات اقتصادية ومتوسط الانتحار في الطبقتين

الاولين فوق المتوسط العام ومتوسطه في الطبقات الثلاث الباقية تحت المتوسط العام. ومن الغريب ان اكثر حوادث الانتحار تقع في إنجلترا بين اصحاب المهن الحرة وخاصة الاطباء واطباء الاسنان والمحامين . على حين انها قليلة جداً بين المعلمين ورجال الدين . ولم تذكر حادثة انتحار واحدة بين رجال الدين الكاثوليك مع ان متوسط الانتحار بين رجال المذهب « الانجليكاني » مثل المتوسط العام . وبين رجال المذهب البروتستانتي فوق المتوسط العام . ومما ثبت ايضاً ان الانتحار كثير جداً بين وكلاء شركات التأمين ونجار المشروبات الروحية واصحاب الحانات وبعض المشتغلين بصباغة الغزل والنسيج . فالاحصاءات البريطانية تؤيد القول بان الانتحار اكثر بين الطبقات الغنية منه بين الطبقات الفقيرة . ولكن الفروق التي تشير اليها الاحصاءات لا تكفي لتأييد هذا الحكم الفاصل تأييداً نهائياً

﴿ المدن والريف ﴾ هل في ازدهار المدن عوامل تهوئ النفوس للانتحار ؟ لا نعلم . ولكن الواقع الذي تؤيده الارقام هو ان متوسط الوفيات في المدن اعلى منه في الارياف ولعل ذلك عائد الى استقرار العائلة الريفية وقلة الطلاق فيها وقلة الازواج الذين لا اولاد لهم ولوحدة العادات والتقاليد واتساقها بين الزوج والزوجة . وليس الانتحار في المدن اكثر منه في الارياف فقط بل هو في المدن الكبيرة اكثر منه في المدن الصغيرة ، اذا تساوت العوامل الاخرى . ففي سنة ١٩٢٦ كان متوسط الانتحار العام في الولايات المتحدة الاميركية ٦ و ١٢ في الالف . وكان في السنة نفسها في المدن ١٦ في الالف وفي المدن التي يزيد سكان المدينة منها على نصف مليون نسمة ٤ و ١٨ في الالف

﴿ الشعب والعقيدة والثقافة ﴾ ولما كان سكان الولايات المتحدة الاميركية مؤلفين من شعوب مختلفة فدرس توزيع الانتحار بين هذه الشعوب له شأن كبير في تفهم اسبابه والبواعث عليه . وقد أسفر البحث في هذه الناحية عن ان النسبة على اعلاها بين الاميركيين المولودين المائناً او من ابوين المانيين ، وعلى ادناها بين الايطاليين واليهود . اما بين الارلنديين فتوسط الانتحار قريب من المتوسط الاميركي العام ولكنه اعلى من متوسط الانتحار في ارلندا . اما الانكليز القاطنون في اميركا فتوسط الانتحار بينهم اعلى جداً من المتوسط الاميركي العام بل هم قريبون من الالمان في ذلك

يظهر من ذلك ان الميل الى الانتحار يختلف باختلاف الشعوب . ولكن لفظة « شعب » لا تدل على معنى معين . ونحن نستعملها هنا للدلالة على اراث تاريخي وثقافي وديني واحد . وهذه العوامل النفسية هي من ابعاد العوامل اثرآ في تكوين فلسفة الحياة . فاذا كان الفرد يسلم بتعاليم الكنيسة تسليماً حقيقياً ويخضع لسلطانها ويأخذ بما ترسمه له من واجبات فالميل الى الانتحار

قليل . اما اذا كان نظام الكنيسة غير محكم وسلطانها مبهماً وكانت للفرد الحرية المطلقة في توجيه حياته فالراجح ان الميل فيه الى الاتحار يكون قوياً . وهذا يعلل الى حد ما قلة الاتحار في البلدان الكاثوليكية . فالاتحار شيء نادر بين فلاحى اسبانيا واطاليا وارلندا وغيرها من البلدان الكاثوليكية . حتى في المانيا حيث يكثر الاتحار نجد فرقاً بين متوسطه في بروسيا اللوثرية وبافاريا الكاثوليكية

ومما يتصل بالعقيدة الدينية في تحديد الميل الى الاتحار الوجهة الفكرية التي تخلقها الثقافة السائدة . فمن الشعوب من يخضع للسلطان سواء كان روحياً او عقلياً او سياسياً او اجتماعياً على انه ارادة الله . والفلاحون في الغالب هم من هؤلاء فانهم يقبلون سلطة الكنيسة والدولة ويسلمون معها بأن الاتحار جريمة في نظر الله والدولة . فهم يحسبون الحياة هبة من الله ويعلمون كما يتعلمون ، ان على كل انسان ان يحمل صليبه مسلماً ، من غير ان يتساءل عما في ذلك من عدل او جور . يقابل ذلك آراء الطبقات المتعلمة ومعظمهم في الغالب من سكان المدن وعندهم ان للفرد مقاماً خاصاً في نظام الاجتماع وينتظرون من الحياة اسباغ نعمها عليه فاذا لم يتم ما يطلبون شعروا ان الحياة نفسها تخيب مقاصدها وتقطع عنهم سبيلها فتضطرب عقولهم وتقلق نفوسهم ومن هنا يكثر انتشار الاتحار بينهم

لقد اتينا فيما تقدم على العوامل الخارجية التي لها اثر في زيادة متوسط الاتحار او نقصانه . ولكن الاقدام على الاتحار او الرغبة فيه نتيجة نزاع نفسي . فما هو الا الفصل الاخير في درامة نفسية عنيفة . وفي بيان هذا النزاع يجب ان نلجأ الى الاطباء النفسيين . هؤلاء يقولون ان الاتحار نادر بين الناس ذوي العقول المتزنة والعواطف المستقرة . وانه منتظر في الذين على الضد من ذلك . فقد شرّح الدكتور بفيفر (Pteiffer) جنث ٦٠٠ منتحر فوجد في عدد كبير منها آفات في الدماغ . وحلل الدكتور سترنز (Sterns) عدداً من حوادث الاتحار في ولاية ماستشوستش فوجد الجنون جلياً في ثلثها ووجد في ثلث آخر اعراض التورستينيا او ادمان الكحول والخدرات . وهناك حالتان نفسيتان اليهما ترجع اسباب كثيرة من حوادث الاتحار . الاولى الملائخوليا وأساسها الشعور بالتدني والضعف . والثانية «دمنشا بريسوكس» ومن مظاهرها شعور الاستعلاء والعظمة ومنها وهم يسيطر على مريض فيقنعه بأن الله يدعو اليه . ثم هنالك الجنون الناجم عن الاصابة بالسفلس وادمان الكحول . وبعد كل هذا نجد حوادث اتحار الباعث عليها اضطراب عقلي او شعوري من غير أية اصابة عضوية وهذه ترجع غالباً الى طريقة التعليم والتهديب وطريقة اتصال الفرد بالمجتمع فيستولي عليه شعور الحية وظلمة القنوط